قصة
رجل خارج الساحة

خضيّر عبد الأمير

لا أدري مَنْ أطلق اسم ساحة الطيور على هذه المساحة العريضة المدّورة من الشارع. ولكن التخمين يشير إلى أنّ هذه التسمية جاءت من كثرة الطيور المحوّمة والقادمة عبر المساحات المفضية إلى المدينة. ولمّا كانت هذه المساحة مُحاطة بكثير من أشجار الكالبتوس والسرو ونخيل جوز الهند وأشجار النبق والعفص وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة، فإنّ للطيور المارّة والمستوطنة مكاناً أثيراً واضح الرؤية. وكذلك الأمر بالنسبة للعصافير الدوريّة التي كانت أصواتها متميِّزة عند المساءات وهي تدخل بين أوراق أشجار النارنج والبرتقال التي كانت ظاهرة للعين وكثيفة الفروع والخضرة ومتسامقة فوق وحول أسيجة البيوت المتباعدة والمتقاربة حول الساحة أو في امتداد لها. ولكن الأصوات الكثيرة للسيارات المارّة ولبعض سيارات الحمل قد طغت على تلك الأصوات الرقيقة التي لم تعد الأذن تتوصَّل إليها، وحلّ محلّها دويّ الشارع وما فيه من حركة متواصلة.

بدت ساحة الطيور غاصّة بالسيارات، ولا سيَّما بعد أن تحوّرت غير مرّة وأصبحت قابلة لاستيعاب المئات أو الآلاف من السيّارات المتّجهة عبر تقاطعات متعدِّدة.

وفي كل مرّة أكون هناك تأخذني التسمية التي كادت أن تُمسح من ذاكرة الناس إلاَّ القليل منهم الذين مازالوا يتذكَّرون وجود الساحة وهي في حماية الأشجار والطيور وأسيجة البيوت المخضرّة وبعض المقاهي المتناثرة حولها وبائع السجائر الشاب المستديم وعدّة دكاكين تتكاثر حتى تصل إلى موازاة بناية ملهى الفارابي الحجريّة ذات السياجات العالية. فأردّد في ذهني شيئاً مستفزاً حتى لاسم الساحة القديم ولتلك الذكريات التي تمتح من سكونية بدائية سداها الإنسان ولحمتها الآلة التي لم يكن لها وجود بهذه الكثرة في ذلك الوقت الذي أجده في مكان ما من هذه البقعة المسوّرة والمحاصرة بالشجر والخضرة والصيف كلّما جئت إليه.

كان لطفي حسن في الرابعة والعشرين من عمره، وكنت في العشرين. التقيته بعد أن شاهدنا لعبة لكرة القدم في إحدى الساحات القريبة من ساحة الطيور، وكان واقفاً قربي يتحدَّث عن اللعبة كأيّ خبير في فن الكرة. وتمشَّينا معاً بعد الانتهاء، تحدَّثنا عن الكرة وعن نجومها وعن الساحات المنتشرة حول المكان، تحدَّثنا وضحكنا معاً. وبدا لطفي حسن أكثر معرفة مني وعلى شيء من الدراية بالمكان وبتلك الأرض المحيطة والممتدّة عبر ساحات كرة القدم وعبر ساحة الطيور نفسها. وحينما اقتربنا من المقاهي الممتدّة على جوانب الساحة دعاني للجلوس ولشرب الشاي، فدخلنا واحداً وجلسنا معاً. بدا لطفي حسن معروفاً في المكان وفي المقهى، والكثير من الذين التقوا به سلّموا عليه.

قلت له:

ـ الكلّ يسلِّم عليك، يظهر أنك معروف هنا.

قال:

ـ أسكنُ مع أهلي في هذا المكان منذ سنوات طوال. لقد نزحنا من الريف وسكنّا الجوار. وجميع الموجودين في المقاهي نازحون من الريف يبحثون عن عمل داخل المدينة، أو هم يعملون وفي أوقات العصر يعودون إلى هنا. فالمقاهي تجمعنا والمكان القريب من بيوتنا يضمّنا جميعاً.

حينما يتحدَّث لطفي حسن فإنّه يبدو بحكمة شيخ وبنبرة رجل، وعندما يتصرَّف بحركة ما أو بإشارة من يده فإنّه يبدو ذلك الفتى الذي يهوى الرياضة والتجوال والضحكات.

حين عدت إلى البيت ماشياً فكَّرتُ في صديقي الجديد الذي بدا مهيباً وهو يجلس في المقهى ويشير بيديه ويتكلَّم. وبدوت مشدوداً إلى زيارته والاستماع إلى أحاديثه وحكاياته عن المدينة والريف والطرقات البعيدة الغائرة في عمق الليل والشمس والأتربة والأوحال، وعن حياة الفقر والهجرة والبحث عن عمل والسكنى على أطراف المدن، ومنها مدينتنا هذه التي استوعبت في جوارها كثيراً من بيوت القصب والصفيح والجصّ والطين والخيش وضمّت طرقاتها الموحلة الضيِّقة كثيراً من الأطفال والشباب والشيوخ والنساء، وتعدّدت الأعمال وتنوَّعت، ولكنها نبعت جميعها من حيوات الأرض ومن تربة معمّقة أساسُها انبساطات المكان وتوسُّعٌ في مدى الرؤية وإيغال في حفر المنخفضات حتى تحوَّلت إلى مقالع للطين والحصى. وشيّدت مجابل للطين، ومخافر للطابوق، وكور حارة

متوهّجة للفخّار، واستوعبت الأرض البعيدة جموع العمّال والأجراء والمياومين بالأجرة اليوميّة المؤقّتة. فكانت كل تلك المجاميع من الرجال والنساء والشباب تزاول مهن البيع والشراء وتبادُل السلع، وتغفو مسقفاتها البعيدة على وجود حيوي لروائح الإنسان، وطيب عروق النبات الملوَّن، وتبادل الابتسام، والنَّوم حتَّى الضّحى، والسَّهر في ليالي القمر وحتّى عند حلكة الليل، واقتياد أسرار الجسد تحت خيمته السوداء.

كل تلك المجاهل بالنسبة لفتى مثلي كانت خافية أو مجهولة. ولكنَّني رأيتها وتوغّلتُ في عمقها وتذوّقتُ بعضها مع صديقي لطفي حسن، فمررت في أماكن بدت كالهياكل الحلميّة وخلفها ضجيج وعبرها ضجيج وحولنا صمت رماديّ وحجارة سوداء ماؤها آسن تلفّ حول الأرض والدنيا. وبدت كل الظواهر من قربنا وكأنها تأخذ بيدينا وتسحبنا نحو مجاهل معلومة صمتُها مطبق كالسواد وداخلها اللونُ الكابي، وعمقها الأمنياتُ الحبيسة. وبدت أكثر العيون والوجوه كأنَّها خرافة العصر الذي لا يمكن لإنسان أن يصل إليها. فكان السواد فوق البياض، والحمرة فوق الزرقة، ولون القهوة فوق السمرة الداكنة، والضحكات ترنّ كأجنحة لعصافير تفرّ بسرعة غريبة وتصعد كالأخيلة الليليّة المتباعدة حيث شاهدت الأرض المزروعة بالأشجار حول المدينة وخلف المستنقعات وعبر أكوام من الأزبال والأتربة والطين، ومررتُ بقبور دارسة وعبرت الحفر وخوّضت في سواقٍ أرضُها مشقَّقَة وتطلَّعت إلى المياه وهي قادمة إلى المنخفضات والأراضي بموجات تتكاثر وتتجمَّع ثمَّ تتدفَّق وتنتشر في الأرض لتتسيَّح، وبعدها تصعد حتّى تصل إلى قمم الأعمدة الحجريّة ورؤوس الفواصم الكهربائية وجذوع الأشجار وتبقى في دوَّامة الصعود لتضيع وتتحلّل من خلالها بيوتُ الطين وأكواخ الصفيح حيث تلتقي بالمياه الجارفة ثمّ تغرق في وحول لزجة كثيفة.

كل شيء يلتصق بالأرض حتَّى ألوان المياه تتحوَّل إلى سائل كثيف قوامه الأرض والتربة الحمراء. وكنَّا نتجوَّل أنا وصديقي لطفي حسن ونذهب إلى البعيد الذي لا يحدّه بصر. وتكون تلك سنة المياه، مشتّتة ومفرّقة. فالعوائل تتباعد وتتوزَّع ويعمّ الاضطراب في الحياة اليومية لمعيشة أناس الصرائف، وأجد صديقي مهموماً ولكنه يبقى كما عرفته من نزوع نحو طفولة الحياة ولاسيّما عندما التقي به أو يراني قادماً إليه من بعيد. لقد عرفت أشياء كثيرة عن الفتى الذي يكبرني بسنوات أربع. فقد كان رجل الملهى ليلاً إذ يرتاد الأماكن المشعّة المتألّقة بحثاً عن متعة يحسّ بها، وكان ملهى الفارابي الصيفي مكاناً مفضّلاً له، وكان الملهى قريباً تماماً من الساحة ومواجهاً لتلك البيوت المتباعدة والمقاهي المحوّمة حول المكان. وعرفتُ أنه أنقذ بعض فنَّانات الملهى من عمليات سلب جرت بعد منتصف الليل. لقد أثارتني حياته الخاصّة وقرّرت أن أزوره أكثر وأسأله عن كل شيء، وكنت في قرارة نفسي محبَّاً لاكتناه سرّ تلك العوالم الغريبة وأجد فيها سحراً شبيهاً بما ترويه الحكايات وتعمّقه الأساطيرُ المتكوِّنة والمرويّة في المنعطفات والزوايا عند مداخل المدينة أو في عمقها. وفجأة وفي يوم صيفي حارّ، تحترق البيوت القريبة من الساحة، ويأخذ الخشبَ والحطبَ وهجُ النار، وتلتهم الألسنة حصرانَ القصب، ويعمُّ اللهب ويرتفع، ويدخل صديقي لطفي حسن النيران مع آخرين في محاولة منهم للإنقاذ ويُصاب بحروق لم تمهله طويلاً.

بعد صديقي، تغيَّر كل شيء. هو منطلق السنوات الطويلة المتباعدة وهو منطلقٌ للتغيير لكي تتوصَّل الجموع الزائدة إلى سبل السرعة في المرور والوصول إلى أماكنها عبر الأرض المتفرِّعة إلى شوارع وساحات فوق حلم المياه الفائضة وفوق مخلّفات الخشب والرماد والمواقد وعبر الآهات والتوسُّلات والنداءات الليليّة المكثَّفة التي تلتصق بوجود السكَّان وبامتداداتهم، وتحوَّلت القلَّة تلك إلى كثرة عبر كل شيء، وحول كل الأشياء.

ولكن المدينة ابتلعت ساحة الطيور وحوَّلتها إلى أنفاق وسطوح، وتباعدت البيوت واختفت الأشجار المتقاربة ولم يبق من ليالي الملهى سوى الصدى الذي تتحدَّث به أحجار الحديقة لأقدم شجرة معمّرة إن وجدت. ولكن هل اختفت تلك الحفنات من اللقاءات والأمنيات والضحكات والمشاريع الصغيرة؟ هل تباعدت؟ هل تعدّدت بعد ذلك وكبرت، أم أنها تلاشت بعد الانهيار؟ كل تلك الأسئلة بقيت محوّمة حول أمكنة الساحة وفي عمقها وعند أحجارها العتيقة.

قلت لرجل عجوز كان يقتعد زاوية من المكان العتيق ليضع فيها حاجياته وأهمّها علب السجائر والشخاط:

ـ كيف حالك يا صديقي العجوز؟

قال وهو يتفرَّس بوجهي:

ـ أهلاً.

ثمّ استطرد:

ـ ولكن من أنت؟!

لم أُجبه. تناولت علبة سجائر وأخذت كبريتاً وضعه للحاجة، أخرجت من العلبة سيجارة وقدَّمتها له.

قال:

ـ تركتُ التدخين منذ زمن طويل.

قلت:

ـ متى، منذ أيام الحريق؟!

وأشرت إلى المكان.

التفت الرجل نحو المكان حيث يدي، وتطلّع إليه ثمّ نظر بوجهي وعاد إلى جيبه يعيد لي النقود وهو يتفرّس بوجهي ثمّ قال:

ـ من أنت؟!

قلت:

ـ ألا تعرفني، أنا لطفي حسن.

تسمّر الرجل في مكانه وهمهم مع نفسه: من أنت... ها.. لطفي حسن تقول، يا سبحان الله كم تتشابه الأسماء!

قلت:

ـ أجل تتشابه الأسماء وحتى الأفعال والأذواق.

بدا بائع السجائر صامتاً محدّقاً بي. تركته ومضيت نحو سلالم النفق الأرضيّ تماماً حيث كان المقهى الذي كنّا نقتعد كراسيه أنا وصديقي. وقبل أن أنزل إلى الأسفل ألقيت نظرة مترامية حيث الأشجار والمقهى والدكاكين فبان كل شيء. وتصاعدت أشياء أهمّها تلك الأصوات المنبعثة إلى وجود كل سامع وهي مزيج من صوت الآلة والإنسان وصوت المكان نفسه بنبراته وضحكاته وبروائح صيفه وطيب نسيمه وبحرارة الأرض المرشوشة بالماء وبعنف الرغبات في الصدور وبالانطواء على شتّى الأمنيات. وكنت أتحدّث وأضحك وكان صوت صديقي لطفي حسن يتمثّل قربي بفرحه وتعاسته ونبراته الأليفة الودودة. لكأنّه ذلك الإيقاع الموسيقي الرتيب والمشوّش الصادر عن مسرح الملهى الذي تضيء واجهته المكان.

بغداد

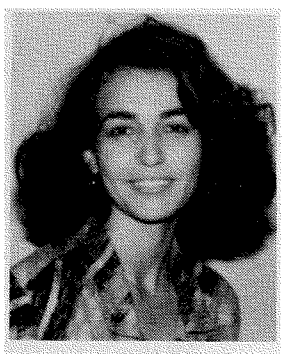

همسة لا مبالية

إراحة الجبوري

حضرتُ إلى هنا من أجلها.

بل هذه هي نصف الحقيقة. لقد جئتُ إلى هنا من أجلي. نعم، من أجلي أنا، غير أنّي لم أستطع رؤيةَ المكان من دون كلماتها. لقد كانت كلماتُها هي الصّورة، وعبثاً أحاول إثباتَ عكس ذلك. حتّى الوقت كانت هي من اختاره، لا أنا كما أدّعي الآن.

وحدها يحقّ لها الحديث واختصار كلّ شيء بإطراقة قصيرة.. إطراقة تختفي خلفها حديقةٌ صغيرة تتعلّق فوقها شمسٌ تخترق أشعّتُها الغيومَ البيض بخجل وتنام على أراجيح الأطفال المهجورة الصّدئة.. إطراقة يختفي خلفها الصمتُ الذي حلّق فراشاتٍ زاهيةَ الألوان على خيوط الشّمس الملتفّة حول زهرة وحيدة، بينما يقف القمر شاحباً بين أمواج الغيوم الرّقيقة.

«لم يكن الصّمت هو العدم ولا الغياب خارج الزّمن، إنّه الامتلاء الأبيض الثلجي الذي يسبح في داخلنا ويجعلنا نحسّ بقرب نهاية العالم. كان الصّمت بمثابة إعادة توازن لخطواتنا السّائرة نحو شاطئ الأبديّة.. نحو تلك الأغنية. ستفهمين معانيها حالما تدركين أسرار الألم وطعم الحزن».

متى قالت لي هذا؟ أتراني أتذكّر أم أحلم؟ لكنّه بالتّأكيد كان في سنة تأخّر فيها هطول المطر. حتّى الذين لا يهمّهم هطوله أو يكرهون هطوله تساءلوا عن سرّ غيابه. انتظار المطر كان شغلَ المدينةِ الشّاغل.

يومها باغَتَنا المطرُ وهطل بعد أن يئس الجميع منه. كنت أسير تحت المطر بانتظاره. سارت إلى جانبي وكأنّها لا تشعر بما يحيط بها من ناس. لم يكونوا أكثر من أشياء عابرة لم تدخل حياتها. لم أرها أوّل مرّة لكنّي سمعت من يقول «حضر المطر ولا من أحد يستقبله.. يحدّق في الوجوه فلا يتعرّف إليه سوى الأطفال الذين يثير دهشتَهم كلُّ شيء والشّيوخِ الذين امتهنوا الانتظار».

قالت هذا من دون أن تنتظر إجابة، لكنّي سألتها:

ـ وماذا عنّا؟ أقصد..

ـ أنت عاشقة.

ـ وأنت؟